

فنون فنون اللغة العربية

إيجاد الألفاظ بمعانيها

بقلم
الدكتور صلاح قنواوى
مدرس أصول اللغة في الكلية

لقد أدرك علماء اللغة بعدهم الغوى الدقيق وجود ملائمة بين بعض ألفاظ الفصحى ومعانيها . فكان لهم بذلك فضل الكشف عن ظاهرة لغوية ، وإضافة بحث لغوى قيم إلى بحوثهم العديدة في لغة العرب يقول السيوطي : « وأما أهل اللغة والمربيّة فقد كانوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين اللفظ والمعنى »^(١) . هذه الظاهرة قد كانت كغيرها من الظواهر التي اشتغلت علماء اللغة العربية سراً مكتنباً انطوت عليه أذاعان العرب ووعته عقوتهم وأحسوا به في دخائل نفوسهم دون أن يفصحوا عنه وحوته أفكارهم دون أن يظهر وراءه وانطوت على سره ذاكراً كرتهم دون أن يسموه أو يشيروا إليه لكنهم رأوه عند إطلاق كثير من الألفاظ على معانيها . فقد لفت أنظار العلماء وجود ارتباط بين هيئة الكلمة أو بعض أسمائها بمعانيها فأعملوا فكرهم النايف ونظرهم الدقيق حتى استطاعوا أن يكشفوا أمرها ويظهروا ما كانوا عنها فآخر جوهرها للناس فيما سموه (المناسبة الألفاظ المعانى) .

وقد تجلت هذه المناسبة في وجود مهارة كثرة بين اللفظ ومدلوله ؛ بحيث

(١) انظر ص ٤٧ - المزهر .

تكون الألفاظ على نمط مخصوص وهيئه معينة ميزة لتناسب المفهوم الذي تدل عليه .

وفي الحق أن لغة العرب لم توضع تلقائياً أو خطط عشواء ، بل روعي في كثير من ألفاظها عدد وضعه أن يكون مناسباً لمعناه لكن عباد الصميري قد غالى في ذلك فزعم أن بين اللفظ ومعناه علاقة طبيعية أوجبه على الواضح للغة أن يضع هذا اللفظ لهذا المعنى دون ذاك يقول السيوطي : « نقل أهل أصول الفقه عن عباد بن سليمان الصميري من المعتزلة أنه ذهب إلى أن يضع اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضح أن يضع - قال : وإنما كان تخص الأسم المعين بالمعنى المعين ترجيحاً من غير صرامة - وكان بعض من يرى ردأيه يقول : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فسئل مامسمى (أذناغ) وهو بالفارسية : الحجر ، فقال : أجد فيه يدسا وأواه الحجر » (١) .

وإذا كان كل من الجمود وعياد يقول بمناسبة اللفظ المعنى فما الفرق بين المذهبين ؟

الفرق قد أوضحه السيوطي بقوله : « لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عباد أن عباداً يرآها ذاتية موجبة بخلافهم »^(٢).

والذى تطمئن إليه النفس في هذا الصدد هو رأى الجھور لبعده على المقالة
ومسايرته للواقع المليوس ، أما رأى عباد فقد ردوا عليه بقولهم :

لـو ثبت ما قاله لاهدى كل إنسان إلى كل لغة ولما صح وضع الصدرين كالقرء للحيض والطهر ، والجلون للأبيض والأسود ، وأجا بهما عن دليله بأن التخصص يراده الواضح المختار خصوصاً إذا قلنا : الواضح هو الله تعالى فإن

(١) انظر ص ٤٧ ج ١ المذكور.

(٢) نفس المارجم

ذلك كتخصيصه وجرد العالم في وقت دون وقت ،^(١)

هذه الظاهرة عن بها العلماء قد يها وحديثا ، فابن جنى قد عقد لها باباً في خصائص سماه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعانى)^(٢) بلغ فيه - كذا به - الغاية في الدقة وحسن المرض مؤيداً ما يقول بالآمنة ، والسيوطى^(٣) في المزهر قد تعرض لهذه الظاهرة وأنطال فيها القول ذاكراً ما لا يحصى عداً من الألفاظ التي بينها وبين معاناتها مناسبة ، كذلك تحدث عن هذه الظاهرة من الماصرين الله كثور صبحى الصالح في كتابة (دراساته في فقه اللغة) معنونا بقوله (مناسبة حروف العربية لمعاناتها)^(٤) .

ومن الواضح للبين أن اختلاف المعانى وتفاوت كثير منها - قوة وضعفها أو استطالة وقصراً أو شدة ولينا ، أو تباينا وتفقطها أو رقة وغالظاً أو نحو ذلك - قد جعل واضع اللغة يختار بعض حروف الكلمة أو بعض حركاتها أو تتابع تلك الحركات فيها أو تضييف بعض أصولها أو تكثير بقائها أو ترتيب حروفها الأصول أو جعل الحروف الزائدة في أولها أو نحو ذلك ، هذا الاختيار من واسع اللغة إنما كان أساسه مناسبة الفظ المعنى ،

ومن هنا يمكن القول بأن مناسبة الألفاظ لمعاناتها تجلی في أمور ، أهمها :

الأول : أن يكون بين صفة أحد أصول الكلمة والمعنى الدالة عليه صلة وقربة .

يقول ابن جنى عن هذا الأمر مانسه : ، فاما مقابلة الألفاظ بما يها كل

(١) انظر ص ٤٧ ٢ - المهر .

(٢) انظر ص ١٥٧ ٢ -

(٣) انظر ص ٤٧ ٤ وما بعدها ١ المزهر .

(٤) انظر ص ١٤٧ ١ وما بعدها ،

أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهر مقلب عند عارفيه مأمور
وذلك أنهم كثيراً ما يجتمعون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر بها
عنها فيعدلونها بها ويختذلونها عليها وذلك أكثر مما نقدرها وأضعاف
ما تستشعره^(١). وبؤخذ من أمثلة ابن جنى وغيره أن الحروف التي تكون
على سمت الأحداث ومشعرة بها تارة تكون فاء الكلمة وتارة تكون عينها
ونائمة تكون لاماً.

(أ) ففاء الكلمة التي على سمت الأحداث المعبّر بها عنها مثل (قوطم)^(٢):
خضم ، فالخضم : الأكل الرطب ؛ كالبطيخ والفمام ونحوهما . والقضم :
الصلب اليابس ، نحو : قضمت الدابة الشعير ، ونحوه . ويعقب ابن جنى على
هذا بقوله : « فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصالحتها لليابس
حذوا لسموع الأصوات على حسوس الأحداث » ، ومثل هذا صعد^(٣) وسعد
وصد وسد وغير ذلك .

(ب) عين الكلمة ذات الصفة المعاكِلة المعنى يوضحه تمثيل ابن جنى
حيث يقول : « ومن ذلك قوطم : الوسيلة ، والوصيلة ، والصاد - كما قرر -
أقوى صوتاً من السين لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من
الوصيلة . وذلك أن التوصل ليس له عصمة الوصل والصلة ، بل الصلة أصلها

(١) انظر ص ٥٧ + ٦٣ المصادص .

(٢) يقول ابن جنى : « ثمروا الصاد لأنها أقوى لما فيه أثر مشاهد يرى وهو
الصعود في الجبل والحانط ونحو ذلك ، وجعلوا السين ليضعفها لما لا يظهر
ولا يشاهد حما إلا أنه مع ذلك فيه صعود الجد لا صعود الجسم إلا تراهم يقولون :
هو سعيد الجد ... ثمروا الصاد لقوتها مع ما يشاهد من الآفالم المعاجلة وجعلوا
السين اضعفها فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين والدلالة الفاظية أقوى من الدلالة
المعنوية وقرب من هذا ما ذكره في سد وسد .

من اتصال الشيء بالشيء، ونماسته له ، وكونه في أكثر الأحيان بعضاً ، كاتصال الأعضاء بالإنسان ، وهي إبعاده ، ونحو ذلك ، والتسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتسل جزءاً أو كليزه من المتسل إليه . وهذا واضح ، يجعلوا الصاد لقوتها المعنى الأقوى ، والسين لضعفها المعنى الأضعف ،^(١) ومثلهما القسم والقسم أو نحو ذلك .

ومن ذلك أيضاً قول الأصحى : « المثل من المطر أصغر من المطر »^(٢) فعلى قوله يكون اختيار الطاء لأنها من حروف الاستعلام المعنى الأقوى وبالتالي اضعافها المعنى الضعيف .

وقد يشترك في المعنى الواحد أكثر من لفظين فتراعي المشاكلة بين اللفظ والمعنى مثل (ق طر) و (قدر) و (قت ر) فيما يذكر ابن جنی معللاً هذا بقوله : « فالثاء خافتة مستففة والطاء سامية متقدمة ، فاستعملنا لتعاديها في الطرفين كقولهم : قتر الشيء و قطر الشيء ، والدال بينهما ليس له صمود الطاء ولا نزول الناء ، فكانت لذلك واسطة بينهما فعبر بها عن معظم الشيء و مقابله » .

(ج) لام الكلمة التي سمّت الأحداث المعبّر بها عنها مثل القبضة والقبضة .

فالقبض : الأخذ بأطراف الأنامل ، والقبض : الأخذ بالسکف كلها فيما يذكر ابن دريد ، وفي الإبدال لابن السكيت يقال : (القبض أصغر من القبضة)^(٣) فاختاروا الصاد الشديدة المستعملة المعنى الأقوى والأكبر لأن الأخذ بالسکف أقوى وأكثر من الأخذ بأطراف الأنامل ، واختاروا الصاد

(١) انظر ص ١٦٠ ج ٢ الحصائر .

(٢) انظر ص ٥٢ المزهر .

(٣) انظر ص ١٥ المزهر .

الرخوة المستقلة للمعنى الأضعف والأصغر . ومثلهما : النفع والنفع أو
القد والقط أو نحوهن .

الثاني : تكثير حرف أصل لغير الحرف في الكلمة إيماء إلى تكثير المعنى
أو تكثيره أو المبالغة ؛ لأن كلا من التكثير والمبالغة كأنه تكثير هذا
التكثير قد يكون في الكلمات الثلاثية أو الرباعية أو الخمسية .

فالت نوع الأول يتجل في :

(أ) تضييف لام الثلاثي : قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجندب
استطالة ومدأ فقالوا : صر .

وف القاموس : (صل اللجام : امتد صوته) ففي هذين التصرين مضارفة
اللام وهي راء أو لام قد دل على الاستطالة .

(ب) تضييف عين الثلاثي الأصول مع الأفعال كقوله تعالى : (وغلقت
الأبراب) وكفعال صيغة مبالغة كقوله تعالى : إنني لفقار لمن تابه وآمن ،
وحل عليها سائر صيغة المبالغة لأنها وإن لم تكن مضارفة العين إلا أنها صيغة
مبالغة مثلها ولا شك أن زيادة المبني في مفعول تدل على زيادة المعنى وفي فم فعل
الواو أقوى من الآلف في فاعل .

كذلك تضييف العين مع الفعل بحرف مثل : اعشوشب واغدوهن
وعشوئل وتضييف العين مع اللام مثل : عصعصب ، كل أوائلك يفيد المبالغة
لأن زيادة المبني كما قبل تدل على زيادة المعنى .

النوع الثاني : الفعل الرباعي المضعف ومصدره ، فقد كردوا فاءـ هـا
وعينـ هـما بأن جعلوا الفاءـ واللام الأولى من جنسـ والعينـ واللام الثانيةـ من
جنسـ آخر مشاكلةـ للمعنىـ . قالـ الخليلـ : وـ كـأنـهـمـ توـهـمـواـ فيـ صـوـتـ الـبـازـىـ

تفطيمًا فقالوا : صرصر^(١) ، وفي اللسان : طق حكاية صوت حجر وقع على حجر وإن ضوعف فهو طقطق : وفي القاموس : أن حل الطعام أ منه صوته فإن توم نترجم صوت فقل : حلحل وتصاصل .

ويذكر ابن جنی : إنك قد تجد المصادر الرباعية المضعفة تأثیر التکرار ،
مثل : الزعزعة والقلقلة والقمعة ونحوهن ، ثم يقول : شملوا المثال المكرر
المعنى المكرر أعني باب القلقلة ،^(٢)

الثالث : لزوم ضم المعني والمضارع في باب فعل يفعل مثلا كلاما
للمعنى؛ لأن هذا الباب في الأغلب إنما جاء في القرآن اللازمة كالحسن والقبح
ونحوها .

الرابع : تتابع الحركات في الكلمة كثيراً ما يدل على تتابع حركات معناها، أو بعبارة أخرى : يكون تتابع الحركات في الكلمة مرجياً بتتابع المعنى . قال صبيو به في المصادر التي جاءت على الفعلان : إنما تأثر للأضطراب والحركة هو : النقران والغليان والغشيان فقبلوا بتوالي حركات المثال حركات الأفعال.

ويقول ابن جنی : إنه قد وجد الفعل في المصادر مثل : الجزئي ، وفي
الصفات مثل : البشکی إنما آتی للسرعة بعملوا المثال الذي تولالت حرکاته
لالأفعال التي تولالت الحركات فيها .

الخامس : جعل الحروف الوائنة الدالة على الطلب في أول الكلمة تتلوها الحروف الأصول بمحافسة للمعنى ومهما كلاه له : يقول ابن جنبي : « وذلك

(١) انظر ص ١٥٢ ٢- المصادف لانجني .

(٢) انظر ص ١٥٣ - ٢ - المهاوى .

فهو : استفعل ، بحاء المهمزة والسين والتاء زوايا ثم ورثت بعدها الأصول
الفاء والمعين واللام فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك ، وذلك أن
الطلب للفعل والمتساه والسعى فيه والتأني لوقوعه تقدمه ، ثم وقعت الإجابة
إليه فتبع الفعل السؤال فيه والتسلب لوقعه ، فكما تبعت أفعال الإجابة
أفعال الطلب كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت
لالمتساه والمسأله ، هذا اللون من المناسبة أغضن وأصنم مما تقدم فيما يذكر
ابن جنی .

السادس : القيمة التجيئية لحرف الفاء في بعض السكلمات إذا اجتمعت مع الدال أو الطاء أو الناء أو الراء أو اللام أو النون في كلمة ويجمع هذه الأحرف قوله - لن تطره - يقول ابن جنی : « ومن طريف ما مر بي في هذه اللغة التي لا يكاد يعلم بعدها ، ولا يحيط بتفاصيلها ، ازدحام الدال ، والناء ، والطاء ، والراء ، واللام ، والنون ، إذا مازجتمن الفاء على التقدیم والتأخیر » فأكثر أحوالها وبمجموع معانیها أنها لوهن والضعف ونحوها »^{١١} سواء كانت الفاء في أول السكلمة مثل : الفلتنة ضعف الرأى والفرد لأن المتفرد إلى الضعف والإلاك والفتور الضعف والفتار الشق وهو إلى الوهن ، والفندر المرم ، وفترا تدل على التقطامن - أم كانت الفاء في وسط السكلمة مثل الرفت لاكسير والطفل للصبي لضعفه والطفل للريح المکروحة والطفل نبات ليس له صلابة بعض الأشجار ونفت ريبة وهو أقل من التفل والمفعج الفقير وهو إلى الضعف - أم كانت لاما مثل : الدال لشيخ الضعيف والتالف والطرف والنحافة .

السابع : تسمية الأشياء بأصواتها مما يظهر فيه إيجاد الألفاظ بمعانٍها ، وذلك يتمثل في :

(١) انظر ص ١٦٦ + ١

(ا) تسمية بعض الأشياء بأسماء أصواتها لما يبنها من قوة الاتصال وشدة الارتباط . من ذلك : غاق اسم للغراب كقول الزاجر :
ولو ترى إذا حيقي من طاق ولئن مث——ل جناح غاق
أى مثل جناح الغراب ، وشيب: اسم لصوت مشافر الإبل عند الشرب.
يقول ذو الرمة :

تداعين باسم الصيب ف متسلم جوانبه من بصرة وسلام
وفي حكاية الأصوات كثير من الكلمات بدل صوتها على معناها .
(ب) تسمية الأشياء بأسماء قرجم في اشتباها إلى أصوات .
مثل : حاجيت وعاعيت وبسلس ، وما شابه ذلك .

وبعد: فإني أكتفى بهذا القدر راجيا الله جعل وعلا أن أكون قد وفقت
في عرض ما أردت ، والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير .

